دوار !..

قصة بقلم عبد المجيد لطفي

ستنطبق السماء على الارض ، وعندئذ ستقوم القيامة ويقع الناس صرعى بالملايين . كانت جدتي تقول هذا وهي مرتعدة . اما الان فانا ارى السماء مطبقة على الارض .. وهي ذي في الجانب الاخر ... سماء رمادية محضبة بدم المساء كطائر اسود اصيب جناحه بسهم طائش ؟

و « دجلة » يفور في الاسفل اكثر فاكثر وانا هنا كشحاذ تعبان يجلس القرفصاء ولكن ماذا يجب أن اعمل ان لم اكن كذلك ؟ .. ماذا يجب ان اعمل لاسرد ادميتي ؟! لا شيء سوى الرمل والدناءة .. ومن ورائي نوع جديد من الدناءة المعاصرة في كلام يطرح ببذاءة او على سيفان وردية بينما ياخذ المغيب طريقه الى غابة النخيل ليموت في سويدائها ... ويلهث النهر كدرا اشبه شيء بالرمل الذائب !! . ما اطيب حالي لو انني عدت مرة اخرى الى ما وراء الضباب والقضبان؟.. كانت لي في تلك الايام افكار متوهجة وكان الرجال المصفدون يصغون باهتمام الى ما اقول ... ويسمعون الحكايات العتيقة حتى وهم نائمون بعيون مثقلة بالسهر !

اما الان فلا شيء منهم ، من تلك الرفقة الطيبة المجيدة ففي البعد عن المجتمع تتماسك الاشياء الرخوة وتصبح قوية كالعقيدة بينما انا الان اضمحل واتحلل كاني اذوب في بوتقة تغلي دما !!

لقد غابت الشمس تماما وصار جناح الليل اسود مهيضا كعباءة تلك الارملة التي طلبت مني ظهيرة اليوم صدقة ! انني ارهف السمع عبر هذه الضجة في الشارع الجانبي الى حفيف المجاذيف . فليلي هنالك سرمدي بارد في بيت من دون اقفال ... وحتى النوافذ مفتوحة على ضلفتيها للسارقين ولكن ما من شيء يسرق في بيتي ! واهلي قد هربوا وتركوني كالجيفة وسط عاصفة رملية ، فشرعت بسحب جثتي ، حملتها على سافين مرتعدتين وها انذا ، ذاك الذي يمشي ويمضغ الشتائم في وجوه الناس ! ..

لقد تركت ورائي ساحة التحرير وحوانيتها وهي ترسل اضواء ذهبية تلمع سواد الممرات كلون الشفق ، والنصب التذكاري في سكته الشامخة يحمل رمزا لثور يتحدى شيئا غير مرئي بقرنين مقوسين حادبين ، والفتيات يعبرن بخفة ومهارة ودلال تحت شعاعه الذهبي عجلات وملء ايديهن هدايا من رجال واصدقاء وازواج مثقلين بالديون وفي اهدابهن سواد كهذه الليلة الفامضة ورغبة زرقاء تتطلع الى نار !! ولكن ما من شيء من كل هذا يهمني الان ! ولم اعد اكترث باي نوع من هذه المغريات وحتى هذه السيقان العسلية لم تعد سوى حوامل من نحاس تحمل اكياسا مليئة بالقذارة . فانا لذلك اشعر بالتقزز وانا هنا على الترأب ، في صعيد من التراب النظيف الهش الرملي. وينساب دجلة مسود الوسط ومن حفافيه يظهر شيء كالطفح ، يحاول الدنو من الساحل ! انني اعرفك يا جرثومة ! .. ظلي مكانك حيث انت ، هنالك في داخل القارب اللين المفروش بالاسفنج ، وفوق راسي ايضا هنا ساقان مثل ساقيك تتدليان بعراء دافيء ينفث العطر . ويتارجح هواء الليل في شارع ابي نواس والماء يبدو رقراقا فضيا مائلا الى زرقة تشبه زرقة الفيروذج !

وما من شيء يصلحني ، ما من شيء على وجه الارض يستطيع اصلاحي . ان على الجدران المتداعية ان تنهد وتنهدم . فان لم يفعل الناس ذلك فالزمن !! قوة الله المبجلة البطيئة الى حد اللؤم ! وياكلني انا ايضا تلك القوة الجائعة الراغبة باللحم المتعفن وكانها في عداء مع القاضي ! ..

من الافضل لي ان اذهب الى « بطرس » هذا الخنزير الاشهب صديقي ، علي ان ارى ما اذا كان قد تعلم كيف يرسم اسمه . دائما يقع في الخطأ نفسه ! ـ يا حيوان يا حرامي ، ليس هكذا يكتب اسمك! « بطرس » وليس « بطروس » ! فمن اين جئت بهذا الحرف الزائد؟!.

حسنا تعال أجلس هنا ، منزرك وسخ ولا رقابة صحية عليك فانت تسعل سعالا جافا حادا ومخيفا ... من قال لك انك بصحة جيدة يا جلف ! طيب هكذا ومرة اخرى كتبتها « بطروس » اللعنة على امك فان اسمك اسم نبي ! لا تحك الكلمة كلها ! اذهب الان وجئني بشريحة صغيرة جدا من لحم نور بائس ! وبلا كأس ، افول لك بلا كأس ! يا رجل ، يا بطرس . ان المسألة هذه المرة جادة فاذا بقيت على هذه البلادة الكلية طلبت أن يطردوك ، وعندئذ سآخذك الى مستشفى « التويثة » قبل ان تبصق دمك من فمك !

اما الان ! يا الهي هذا كان في الماضي قبل سنتين بعيدتين كجيلين كاملين ولكني الان وفي هذه اللحظة بالذات ما اشد حاجتي الى بطرس! ليكتب اسمه كيف يشاء فماذا يهمني اسمه ؟ اسم نبي او حواري او صعلوك ! فلك وحدك المجد في السماء يا يسوع ، ايها المخلص الذي تحمل الالم ... فها انذا القي المي في طريقك ... لا تقل انك مسلم ، فانا الاخر مصلوب !!

فلاذهب الى بطرس ، ان الخواء يدور في جوفي ولساني جاف كخشبة صندل بالية ونهر دجلة ينساب الى البحر بكل مائه العذب الحلو الرقراق ! . ويصعد لصيادي النهر صوت مجوف محتقن ... وبارد ... هم ايضا يعيرون المهنة في الليل ويديرون قوارب نظيفة تضطجع فيها اجسام رخوة دافئة لها ليونة الاسماك الطازجة !

وما من احد يعرف علتي اكثر من بطروس ، بطروس انك على حق حين تضيف مزيدا من الحروف الى اسمك فكل احد هنا يسرق شيئا ومن لم يسرق فقد سرق ! فيا عزيزي بطروس انني احبك ! فانت اكثر نفعا للحياة من اديب متعطل يذرع شوارع السكارى والكسالى في ليالي القمر ، انت انفع من الف اديب يلت الكلام ويطحن الهواء فلا يحدث حتى الجعجعة ! ..

يا الله ... ارجوك ان تذهب عني فتشحذ بعيدا ، ارجوك يا كسيحا ملء العين ان تذهب فتشحذ امام بوابة ملهى « البراويس » فمن هناك يخرج الناس سكارى وعندئذ وهم امام حقيقتهم الحقة ويقظة ادميتهم يشعرون بعاهتك .. يرون كم انت كسيح وبائس !

هل سمعت يا رجل ؟ .. والان وقد سمعت فلا يجوز ان يجلس شحاذان في منطقة واحدة فهذه منافسة دنيئة تماما ... ماذا تقول ؟ ان طريقنا يختلف في الشحاذة ؟! . وان شباك الناس ملونة واكثر اجتلابا للسمك ! .. اه انت في هذا صادق تماما . حسنا جدا فلقد غلبتني والله في هذا ، اقم انت حيث انت ويجب ان اذهب انا بمفردي وبكل هذه البقايا الى بطرس ! ..

هيه يا صديقي ... كأسا مزدوجة كالامس ولا تعانقني يا كلب . حسنا ، بعيدا هكذا عني فما تزال الجيفة تحت ثوبك ومئزرك قذر كالامس ويتطاير السل من شدقيك ! ..

كأسا مزدوجة ونصف دجاجة مشوية على نار « عم چجو » ! كيف صار الان ؟!

اه ، اذن عم چجو هو ايضا مات !؟ ما اكثر الذين ماتوا خلال عامين ! وقع من السطح ! فليرحمه الله بعمله ... وانت تدري انه لم يكن له عمل صالح كثير ! ومن هو طباخ المشرب هذه الايام ؟ .. ابو سموره ؟ .. ومن هو هذا ؟ .. آ ... لقد فهمت .. وسموره صارت امراه ! المجد في الارض لابناء الارض من ذئاب ونعاج الحلود الطيب الرب الجليل المبجل في السماء .. وهكذا تراني بحاجة الى نصف دجاجه وفل لابي سموره انني قد عدت . يعرفني جيدا . كانت ابنته تبيع السكائر واللبان والجواري في باب المشرب حتى صارت امرأة .. وفي عامين اكملت دورتين كبيرتين حول نفسها وحول الشمس وعرفت مولودا بدون اب ! ايها السيد المبجل ، لقد صار الناس في هذا الجيل يولدون من دون اباء ... والامهات بدون رحم والعبودية اسودة والاخلاق اسودة عمال الكهوف والمناجم .

طيب هذا منك يا بطروس . الف طيب ومن كرمك اذا بقيت فيك نبضة من الكرم أن تاتي لي بكاس مزدوجة ونصف دجاجة وماذا هناك من نفير غير ذلك ؟! طاطىء قليلا وابتعد عني يا بطروس ... نفسك كريه كأنه خرج من عمق متعفن ، الله ولا نزال تحب الثوم ؟ انهم يكذبون عليك ، ليس علاجا للسل !

يا الهي بك استعين . اهدني الصراط المستقيم ! ولكني مع كل دعائي الطويل الدائب انا ضال ومضيع وليس أمامي غير درب المستنقعات .. واعوذ بالله من الشيطان الرجيم ... اذن هي الاخرى يا بطروس هنا ؟ .. ومن كان يصدق هذا ؟ وانت هل كنت تصدقه لو قيل لك ذلك في تلك الايام ؟! ابدا لم يكن ليمر شيء من هذا في خيالي « سونيا » الصغيرة التي ارادت ان تكون طبيبة عيون . اه اذن هي الاخرى في الجانب الخلفي من المشرب ! وتدعوني !! كيف عرفت ذلك يا خنزير المستنقع ؟! يا ابن الحمار يا سمسارا بالوراثة ! اذن فانت الذي قلت لها ذلك قلت انني موجود مع انني معدوم !

طيب فما دام الامر كذلك فيجب ان اعود الى ارومتي الطيبة ولا اخيب لها ظنا بي ! وما دامت كما تقول تريد استرداد زبائن امها ، ما دامت تريد اعادة سمعة المحترمة الى الوجود مكررة بها ، حسنا اذن ففي هذه الحالة سافعل ... فاذهب انت اولا يا بطروس وهيىء الجو والبيئة والمناخ المناسب وساكون في اعقابك خلال دقائق بعد ان اكون قد اتيت على هذا الفخذ المهزول من الدجاجة المجهولة ! وقل لها « سونيا حبيب ، امك هذه المرة عجوز »

حسنا اذن من دون مقدمات ... اهلا بك يا سونيا ... عندي لك حكاية :

« كان لنا في القرية ثور يا سونيا ، اعذريني فان القصة تملأ صدري ، في قرية لنا قرب « عليواه » في اقصى حدود بلادي قرب نخوم ايران كان يوجد ثور . كان مسنا وضخما وكنت اخاف منه . وكان الصغار جميعا يخافون منه يخافونه بكل جوارحهم فيرتعدون عند رؤيته اتفاقا وكان مع ذلك من دون اسنان ! ولكي يمضي وراء الخطوط الطويلة المتعرجة ويجر المحراث كانوا يسحقون له الذرة والشعير ويخلطونهما له باللبن وكان عليه ان يأكل ليعيش ويجر المحراث وعاش هكذا طويلا مشددا الى الحياة دون اسنان . ! هل اعجبتك الحكاية يا سونيا ؟ انا زبون امك الحقيقي ... وانت صغيرة عافاك الله ، وها انذا عجوز وانت صغيرة ولكن الثور الذي تسقط اسنانه يسحقون له العلف ... وانت هشة لك بضاضة امك ونعومة اطرافها ...

فيا دموعي اين انت ؟ .. بطروس يا سيدي ، انت سيدي هذه المرة تعال انظر هذه العملة ، تاكد انها غير مزورة ... شكرا لله ... ليس لدي غيرها انظري يا سونيا ... هذا كل ما معي ، اضعه بين يديك . ان ذكرى امك تؤرقني ويجب ان تأخذيني اليها اكراما للذكرى في اخر هذا الليل !

يا سيدي بطروس كأسا اخرى مزدوجة للسيدة وشريحة اخرى من الدجاج ، دجاج طازج غير مخنوق او من فضلات الكلاب عليه انواع من التوابل لاخفاء فساده ... دجاج طازج يا سيدي بطروس ... وبعد ذلك الامر اليك يا سيدتي ، يا سيدتي الصغيرة سونيا ... يا من تشبه الحباب في كأس مترعة !

انني اريد امك . فلن تعيدي اليها مجد الشبق والمراهقة بهذا الابتذال الفض !

ان مجدها الحقيقي عند اصدقائها يا سونيا فيا ليلتي الحزينة اسكبي مزيدا من الحرارة في راحتي فانني اريد أن امر بكفي على هامة سيدة !!

في اخريات الليل سيتسكع عجوزك اليك يا ام سونيا ويترك النهر يغسل عفته البالية فاذا كنت طريحة الفراش فساواسيك مخلصا وادفن رأسي في مخدة القش واسحب رجليك من الوحل !

ولكن امهليني قليلا يا سونيا فان ليلي طويل كأنه معي من امعاء خنزير نافق في عراء ليلة حارة استوائية ... واف لك من فتاة برة مع مسلك امها البربري الجائع ! وما دام لك فراغ كاف من الوقت والى ان يحين ذهابنا الى البيت ، تعالي اقص عليك قصة امراة اخرجت من بين فكي ذئب ادرد لتقع في الوحل ... وحل قليل الغور كثيف العفونة ... فهناك ، وراء تلك السدرة الوارفة الظلال وقعت بداية الحكاية ...

على عجل يا بطروس . على عجل . كأسا مزدوجة اخرى للسيدة!!

بغداد

عبد المجيد لطفي

صدر حديثا :

زورق من دم

مجموعة قصص بقلم :

يوسف شرورو

منشورات دار الاداب